جمال حمدان

عاشق مصر ومكتشف شخصيتها

- رفض وسام التكريم وتسلمه أخوه فى جنازته
- أحبطته المؤامرات والوساطات فانصرف إلى أبحاثه
- مصر تنفرد بتعقيد تاريخها وبساطة جغرافيتها وشعبها
- استاذه: كتاباته ستغير جغرافية وتاريخ مصر.. إذا كان هناك من يسمع ومن يقرأ.
- هل اغتالته المخابرات الإسرائيلية.. أم مات بانفجار.. البوتاجاز.؟
- الرجل الذى تحمل كثيراً ورحل وحيداً.

تتجسد عبقرية «مصر» أفضل وأكمل تجسيد فى عبقرية العالم الشهيد «جمال حمدان» فقد كانت حياته ومؤلفاته وكل أبحاثه ودراساته، وحتى وفاته المأساوية حدوتة مصرية، كتبتها جغرافية وتاريخ هذا الوطن الذى عشقه «جمال حمدان» وكرس حياته لتخليده فقد أمن بعبقرية مصر، التى قال عنها: أبوها التاريخ وأمها الجغرافيا، ومن كان هذا نسبه فلابد أن يكون عظيمًا وهكذا دائما مصر».

لم يكن «جمال حمدان» عالمًا فى الجغرافيا فحسب، ولكنه كان عبقريا فذا، وعاشقا لمصر كأعظم ما يكون العشق. ولقد اندمجت عبقريته الفذة مع عشقه العظيم لمصر الخالدة، فصاغ رباعيته العظيمة، «شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان» والتى استطاع من خلالها بمهارة فائقة أن يحول علم الجغرافيا، الذى يهتم بالتضاريس والجبال والوديان إلى سيمفونية موسيقية رائعة.

ورغم كل هذا العشق، عانى «حمدان» من أبناء محبوبته أمرَّ المعاناة، تعرض هذا العالم إلى «الضرب تحت الحِزام» وكان هدفا لمؤامرات الانتهازين والوصوليين والمزورين من أدعياء العلم، فآثر أن ينسحب من وسط هذا الزيف حتى لا ينقص حبه وعشقه لمحبوبته مصر، وحتى تظل صورتها كما عاهدها.

هرب بمحبوبته وبحبه إلى محراب العلم، إلى عالمه الخاص، عالم البحث والدراسة، وهناك غاص فى أعماق أعماق محبوبته، التى بادلته حبًا بحب، باحت له بأسرارها، ذاب وتوحد مع ثراها ونيلها، وعرف سر عبقريتها، التى تجمع بين عبقرية الزمان والمكان.

ولم يغب رغم عزلته فى صومعة العلم، عن مشاكل وقضايا أبناء مصر وغيرهم من العرب والمسلمين. فقلبه المحب كان يتسع لآلام المسلمين جميعاً، كان

بعيداً عنهم قريباً من مشاكلهم، يبحثها ويدرسها، حاول أن يرسم لهم خطوط المستقبل، ويصف لهم الطريق إلى العبقرية المفقودة.

أشار لهم إلى عدوهم الأول إسرائيل، ووصف لهم كيفية القضاء على هذا العدو الذى أتاحوا له فرصة الوجود بسبب الغيبوبة التى أدخلوا أنفسهم فى دائرتها. فكان لابد أن يغتاله «الموساد».

ولقد كان الرحيل المفاجئ والظروف الغامضة التى اكتنفت رحيله، صدمةشعبية، ذلك أن جمال حمدان، كان واحداً من أعظم رموز الوطنية المصرية.

العَالِمُ الحق

لقد كان حمدان «نبته مصرية أصيلة، ومثال لما يجب أن يكون عليه العالم الحق، الذى يكره الأضواء، وهالات الإعلام الزائفة، التى جعلت من أدعياء العلم نجومًا، وبخست العلماء الحقيقيين حقهم.

كان جمال حمدان عبقرية سبقت عصرها وسطَّرت بأحرف من نور اسمها فى تاريخ الخالدين، فهو جهاز استشعار دقيق لنبض معشوقته مصر، عالم تجاوز حدود تخصصه العلمى «الجغرافيا» إلى فلسفة الزمان والمكان، ليجعل كل حبة رمل، وكل شبر على أرض المحروسة ينطق بعبقريته.

وُلِدَ جمال حمدان فى قرية «ناى» بمحافظة القليبوية فى ٤ فبراير «شباط» ١٩٢٨ فى أسرة كلها صلاح وعلم، تنحدر من قبيلة «بنى حمدان» العربية التى نزحت إلي مصر مع غيرها من القبائل العربية أثناء الفتح الاسلامى، ولما وصل إلى سن دخول المدرسة الأبتدائية، أدخله والده «مدرسة شبرا» الإبتدائية للبنين عام ١٩٣٦، وحصل منها على شهادة الابتدائية فى يونيه ١٩٣٩، والتحق بالمدرسة التوفيقية الثانوية فى سبتمبر من نفس العام، وهو تاريخ إعلان الحرب العالمية الثانية، وقد واكب دراسته بهذه المدرسة جميع سنى الحرب، وما أفرزته من آلام ودمار، وفى هذه المدرسة وبالتحديد فى السنة النهائية التقى بإستاذه

«محمود جمال الدين» استاذ الجغرافيا بالمدرسة الذى حبب إليه هذا العلم، وجعله يصمم على متابعة دراسته بكلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول «القاهرة» بعد حصوله على التوجيهية عام ١٩٤٤ بتفوق، وكان ترتيبه السادس على طلبة القطر المصرى.

وجاءت سنوات دراسته الجامعية حافلة بالجد والاجتهاد، حيث تتلمذ على يد اساتذه أفذاذ كل فى مجاله، وتعلم اللغة الألمانية وأجادها أثناء دراسته الجامعية.

ولما تخرج بامتياز عام ١٩٤٨ كان عمره لا يتجاوز العشرين سنة، فعُيّن معيداً بالكلية فى نفس السنة، وابتعثته الجامعة إلى انجلترا لاستكمال دراسته العاليه، فسافر إلى جامعة «ريدنج» فى مارس «آذار» عام ١٩٤٩، وعاد إلي مصر بعد حصوله على درجتى الماجستير والدكتوراه عام ١٩٥٣، وانضم إلى هيئة التدريس بقسم الجغرافيا وظل يعمل به إلى أن استقال عام ١٩٦٩ وتفرغ للبحث والتأليف حتى وفاته عام ١٩٩٣.

سر عبقريته

عاشق مصر ومكتشف شخصيتها كان مثالا رائعًا للعبقرية المصرية التى شقت طريقها وسط جبال اليأس والاحباطات التى حاصرته من كل جانب، حتى أنه آثر الاعتكاف، وليس الانسحاب أو الاعتزال كما يفعل كثيرون ـ لكى يرصد ويتعمق ويحلل شخصية مصر الخالده وشعبها العظيم، ومن عبقريته أنه لم يكن يختار السهل أبداً. . ولا يلتفت للقشور بل يعنيه اللب ويرتقى لأعلى وينفذ للجوهر، ويستهويه الإقليم لأنه الاعقد، قابل للفحص بما يرضى رؤيته الشاملة، لا يكتفى بالوصف وانما ينقب عن شفرته وسره.

أجازه من الحياة

كان اعتكاف جمال حمدان وانفصاله عن الحياه من نوع آخر تمثل فى الجنوح إلى الكتابة وعالم الإبداع والإنجاز، ولم يكن اعتكافه سلبياً أو تمرداً أو لامبالاة أو ضياعاً، ولكنه فى قمة الإيجابية والغوص فى مشاكل مجتمعه للعمل على خلاصة وتقدمه، متناسيًا المتاعب التى لا قاها من أعداء النجاح، لأنه فى النهاية

جزء من نسيج مجتمع يفخر به، وعن سر اعتكافه وعزلته يقول: لا أريد التعامل مع المجتمع، ولن أخرج من عزلتى حتى ينصلح حاله، وإن كنت أتصور أن هذا لن يحدث» كلمات تفيض بالألم والمرارة، تحدث بها «حمدان» فى الوقت الذى اتخذ فيه قراره، بالعزلة داخل محراب صومعته بشقته المتواضعة بالدقى.

وقد جاء هذا الاعتكاف بسبب السلبيات التى تعرض لها «حمدان» وهى جزء من مجتمع بأكمله، وكانت بدايتها فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب، حيث بدأ الكل يتربصون به، وكان من سوء حظه أنه التقى غير عامد ولا متعمد بتلك الكثره من الديناصورات التى كانت لها صلة بفلان وعلان ممن كانوا يعتبرون ذلك جواز مرورهم صوب اعتلاء المناصب القيادية بلا مجهود أو علم، ولم يقتصر الحال على تخطيه فى الترقية، بل وصل الأمر إلى حد حرمانه من تدريس مادته المفضلة «جغرافية المدن، وتكليفه بتدريس ماده «الخرائط» لطلبه السنة الأولى، والتى عادة ما يقوم بها المعيدون.

أعداء النجاح

وتتوالى الأحداث ويظل «حمدان» يعانى من أعداء النجاح وفيروسات العبقرية وتحاصره الهموم من كل جانب، وعندما انتدب للعمل فى جامعة القاهرة فرع «الخرطوم»، وجد هناك أن أحد الزملاء ممن سبقوه إل السودان قد سطى على كتبه ومحاضراته وطبعها ووزعها على الطلبة على أنها من بنات أفكاره، فأُصيب بالدهشة واستولى عليه الغضب، واثبت لطلابه أنه صاحب هذه المؤلفات، وعاد من الخرطوم بعد أن أمضى فيها فصلاً دراسيا واحدا أنجز فيه أحسن دراسة كُتبت عن مدينة الخرطوم باللغة الانجليزية. وفى القاهرة وجد نفس الاستاذ ينافسه على الترقيه، بل ويسبقه إليها بتلك الأبحاث التى سرقها منه!

ومن ثم أيقن «حمدان» أنه لن يقوى على الوقوف أمام هؤلاء الأشرار، وأنه لا سبيل إلى محاربتهم إلا بسلاحه الوحيد الذى لا يملك سواه وهو العلم.

أرسل باستقالته إلى الجامعة، ولكن المأساة تظهر فى أبشع صورها عندما تُعلَّق

استقالته لمدة عامين، إمعانًا فى المضايقة وضياع حقومه المشروعة، فكان قرار الأعتكاف والأعتزال عن المجتمع.

روائع العبقرية

ظهرت عبقرية حمدان وهو لم يتعد الثلاثين من عمره، عندما أبدع سبعة مؤلفات قبل مؤلفه العظيم «شخصية مصر» ـ لا يمكن إنكارها من المتخصصين فى مجال علم الجغرافيا وهى: دراسات فى العالم العربى ١٩٥٨، أنماط من البيئات ١٩٥٨، دراسة جغرافية المدن ١٩٥٨، والمدينة العربية ١٩٦٤، بترول العرب ١٩٦٤، الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ١٩٦٤، واليهود انثر بولوجيا ١٩٦٧.

ويواصل حمدان إبداعاته ليقدم للمكتبة العربية ـ بعد شخصية مصر سبعة مؤلفات أخرى ذات قيمة إبداعية وفكرية متميزه وهى:

إستراتيجية الاستعمار والتحرير ١٩٦٨، العالم الاسلامى المعاصر ١٩٧١، بين أوربا وآسيا دراسة في النظائر الجغرافية ١٩٧٢، الجمهورية العربية الليبية دراسة فى الجغرافيا السياسية ١٩٧٣، ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ١٩٧٤، قناة السويس ١٩٧٥ وافريقا الحديثة ١٩٧٥.

شخصية مصر

ومن أجمل ما أبدع جمال حمدان رائعته «شخصية مصر» ليضيف ويبدع ويتفاعل مع مستجدات العصر والأحداث، وتأتى هذه الموسوعة فى ٤ أجزاء لتستغرق ٩ أعوام من حياة» «حمدان»، وكل جزء من الموسوعة يقع فى ألف صفحة، ويتحدث عن وجه من وجوه مصر: أولها: البساطة ويخص بها وجه مصر الطبيعى، «بقدر ما يمتاز تاريخ مصر بالتعقيد.. تمتاز جغرافية مصر بالبساطة، بساطة انعكست فى شعبها».

جغرافيتها ربابة من وترين.. الصحراء والنهر، بهما عزفت وعلى ايقاعهما، نمت واحتمت، تصلبت وارتخت، تصاعدت وكسيت، من عصر إلى عصر.

ثانيها: التجانس.. مفتاح قوامها البشرى يفسره من «ساسه لراسه» وعلى حد

قوله: «التجانس نغمة يوقعها اساسًا النهر، وتسرى منه إلى الزراعة والرى والمحاصيل والسكان والسكن والقرى والمدن وتتلاشى معها الفروقات».

ثالثهما: التكامل، مفتاح بنيتها الإقتصادية فى تكوينها المتداخل العضوى وتشكيلها الهرمى التصاعدى، قاعدته الزراعة وقمته الصناعة وبينهما التجاره.

أما مفتاحها الرابع فيتمثل فى معادلة قوة مصر، وبها يتوج «حمدان» نظريته العامة عن شخصية مصر فى الماضى والحاضر والمستقبل.

اساتذه فى حياته

استوعب «جمال حمدان» من سبقوه واعترف لهم بالفضل فتجاوزت عبقريته السابقين واللاحقين.

عندما التحق بمدرسة التوفيقية الثانوية التقى فى السنة الأخيرة باستاذه الجليل «محمود جمال الدين» رحمه الله الذى كان يدرس له علم الجغرافيا فى السنة الأخيرة بالقسم الأدبى، وكان هذا الأستاذ بعلمه وفضله هو الذى حبب إليه الجغرافيا، خصوصاً بعد أن اكتشف نبوغه وولعه بهذا العلم واستعداده الفطرى له. حفزه على أن يلتحق بقسم الجغرافيا في جامعة فؤاد الأول «القاهرة» لأنه كان يعرف طريقه وهدفه.

وفى الجامعة وجد جمال حمدان المجال أوسع لكى ينهل من معشوقته الجغرافيا، وهنا التقى بأساتذته الأفذاذ الذين تركوا بصماتهم القوية على طريقة تفكيره وعلى نظرته إلى الجغرافيا فى مصر، وعلي رأس هؤلاء الأستاذ «مصطفى عامر» وكان جمال يحبه ويكن له كل تقدير، ويعتبره المؤسس الحقيقى والأب الروحى لمدرسة الجغرافيا المصرية الحديثه، وإليه أهدى أول أعماله التى صدرت له باللغة الانجليزية عام ١٩٥٥، وهو كتاب «دراسات فى الريف المصرى» ومن أساتذته أيضا الدكتور «محمد عوض» الذى تأثر به جمال فى بداية حياته الجامعية، وكان لفرط إعجابه به يحفظ مؤلفاته عن ظهر قلب، لاسيما كتاب «نهر النيل».

كما ظل جمال يكن الحب والود لأستاذه، الدكتور «عباس عمار» حتى بعد أن ترك سلك التدريس الجامعى، وأهدى إليه مؤلفه «جغرافية المدن». . وها هو الدكتور «عباس عمار» رحمه الله يقول عن تلميذه «جمال حمدان» إن كتابات «جمال حمدان» ستغير وجه الجغرافيا فى مصر، بل وتاريخها إذا كان هناك من يسمع ومن يقرأ.

أما الدكتور «سليمان حزين» فقد كان بالنسبة له رائد فلسفة الجغرافيا دون منازع وحامل رايتها ومبدعها.

وفاة غامضة

رحل العالم والمفكر «جمال حمدان» يوم ١٧ ابريل (نيسان) ١٩٩٣م، فبينما كان أقباط مصر يستعدون للاحتفال بعيد القيامة فى اليوم التالى، وبينما شعب مصر كله يعد العدة لليوم البهيج، يوم «شم النسيم»، رحل العالم والمفكر جمال حمدان، وكان رحيله مدوياً فاجعًا لكل القراء والمثقفين فى عالمنا العربى، فمبدع شخصية مصر وجغرافية المدن، قذفته الحياة خارجها عبر أنبوبة بوتاجاز، قذفت الأنبوبة عاشق مصر، قلب مصر الذى ينبض بحبها، كما نبض قلب مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهما من أبطال النضال الوطنى، صحيح أنه كان خصمًا للنظام فى أيام سلفت، لكنه كان خصماً شريفاً وايجابياً وفعالاً. إنه الانتماء الحقيقى لمصر العروبة والاسلام، الذى جعله يدرك ماضيها التليد، لكنه كان قلقا على حاضرها ومستقبلها. .

التحقيقات الرسمية أشارت إلى أن سبب الوفاة حريق نتج عن تسرب الغاز من موقد البوتاجاز الخاص بشقته، ولكن هناك العديد من الشواهد التى تؤكد أن الموساد الإسرائيلى كان وراء وفاة جمال حمدان، المعروف بكراهيته لإسرائيل التى اعتبرته من أعدائها، واشار البعض إلى أن جمال حمدان تم اغتياله مثل غيره من العلماء خاصة، وانه كان قد انتهى من موسوعة عن العنصرية الاسرائيلية، بين فيها الطريق للخلاص من هذا العدو الإسرائيلى، وقد اختفت أصول هذه الكتاب بعد الحادث الأليم.

حكاية وسام

عندما منحت الدولة الدكتور جمال حمدان وسام العلوم والفنون عام ١٩٨٨ ولم يحضر احتفال التسليم، طلب «براهيم علي حسن» المستشار القانونى لوزير الثقافة من أخيه «عبد الظيم حمدان» تحديد موعد لمقابلة الدكتور جمال لتسليمه الوسام، وللأسف رفض د. جمال، وطلب إرساله إليه بالبريد، وفى الجنازة فوجئ أخوه بمستشار وزير الثقافة يسلمه مظروفاً، فتحه فوجد فيه الوسام الذى رفض جمال استلامه وهوحى.

موعد الرحيل

قبل الوفاة قال لشقيقه إن كل إنسان له لحظة سيموت فيها، فكل ورقة شجر حدد الله موعد سقوطها، هكذا الإنسان حينما ـ يحين قدره سيموت، وأنا لا أخشى من الموت، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتذكر أو يتحدث فيها عن الموت والحياة. يقول شقيقه: وتركته وانصرفت دون أن أعلم أن هذا هو اللقاء الأخير.

صائم عن الزواج

يقول أخوه عبد العظيم حمدان حاولت مراراً أن أجعله يفكر فى الزواج حتى لا يعيش وحيدا إلا أنه كان يرفض، وأثناء دراسته فى انجلترا كان قد تعرف إلى زميلة له بنفس القسم، وهى فتاه انجليزية جميلة سمعتُ أنه ارتبط معها بقصة حب، ولا أعرف ما الأسباب التى باعدت بينهما، وعندما فاتحته فى الزواج منها رفض، وظلت هى معجبة به لدرجة أنها صممت علي أن تترجم «شخصية مصر» مع زوجه شقيقى عبد الحميد إلي الفرنسية

مؤلفات صدرت عن جمال حمدان

* «جمال حمدان فى ذمة التاريخ» للدكتور محمد الغنيمى.

* «صاحب شخصية مصر وملامح من عبقرية الزمان» للدكتور عبد الحميد صالح حمدان.

* «جمال حمدان عبقرية ضد الانحناء» إعداد محمد عبد الغنى علام.

* «صفحات من أوراقه الخاصة» للدكتور عبد الحميد حمدان.

الجغرافى الحق

يقول حمدان عن الجغرافى الكامل: «أنت إما جغرافى مؤبد، جغرافى مدى الحياة، من المهد إلى الحد، وإما أنت لا جغرافى على الاطلاق، لاوسط بين الجغرافى المطلق واللاجغرافى على الاطلاق، فالجغرافيا لا تقبل شريكا قط، لا فى العلم ولا فى الحياة، أنت محكوم عليك بالجغرافيا إلى الأبد، والإ خرجت من حوزه الجغرافيا؛ بمعنى أنك لن تكون شيئًا مذكوراً فى الجغرافيا، إن لم تتفرغ لها تماما، العمر كله.

وليس فى الجغرافيا شئ كفترة انقطاع تتركها إلى حرفة أو مهنة أخرى، ثم تعود إليها، كلا إنها نقطة اللاعودة. لا يكون الجغرافى جغرافيا إلا إذا كان فيلسوفا. ولا يكون الجغرافى جغرافيا إلا إذا كان «حمار» شغل.

* وقال عن الجغرافى أيضا: «أن الجغرافى الحق الذى جاء ليبقى وخُلِقَ ليخلُق هو الذى يُولد «حيوانا جغرافيا» يعيش عبداً جغرافيًا. ويموت قتيلا جغرافياً».

معنى أن تكون مصرياً

اللحظات الأجيرة: ذروة التألق ومنتهى الحكمة وخلاصة الخبرة يسجلها لنا جمال حمادن فى أيامه الأخيرة من خلال كلمات تعبر عن مدى عمق تجربته فى الحياة.

أن تكون مصرياً فهذا يعنى فى الواقع شيئين فى وقت واحد: الأرض والشعب والوطن والقومية، فالمصرية للمصرى هى قاعدة الاساس وقاعده الأرتكاز، وهى قاعدة مركبة لا بسيطة من عنصرين لا عنصر واحد

مصر ببساطة

* ببساطة مصر أقدم وأعرق دولة فى الجغرافيا السياسية للعالم، إنها قدس الأقداس» سياسيًا وجغرافياً فهى ببساطه من خلق الجغرافيا الطبيعية، لا التاريخ ولا السياسة ولا الصدفة ولا القوة، أنها نبت طبيعى بحت.

هستريا العالمية

* نعم سيصبح العالم قرية كبيرة أو صغيرة، لكن حذار من هيستريا العالمية. لعبة أمريكا والغرب ضد الآخرين خصوصًا ضد العرب.

كارثة فلسطين

* كارثة فلسطين اسرائيل وهى ببساطة كالتالى: طلبت الصهيونية العالمية دولة لليهود فى فلسطين فأسسها لهم العرب.

* إذا كان اليهود يقولون لا معنى لاسرائيل بدون القدس فنحن نقول لهم: لا معنى للعرب بدون فلسطين.